

الباب الخامس

الحق في المعاملة

١ - الفصل الأول :

في معرفة الحق وتحديد معالمة .

٢ - الفصل الثاني :

في الحكم بين الناس بالحق .

٣ - الفصل الثالث :

فيما أوجبه الله للناس من حق .

٤ - الفصل الرابع :

في الأسباب التي تعين الناس على القيام بالحق .

٥ - الفصل الخامس :

فيما يقع بين الناس بغير الحق .

الفصل الأول

في معرفة الحق وتحديد معالمه

«الأصل في معرفة الحق الكتاب والسنة.

فلا بد أن نؤمن بالكتاب ونتبع ما أنزل إلينا من ربنا جميعه ولا نؤمن ببعض الكتب ونكفر ببعض، وتلين قلوبنا لاتباع بعض السنة وتفر عن قبول بعضها - بحسب العادات والأهواء. فإن هذا خروج عن الصراط المستقيم، إلى صراط المغضوب عليهم والضالين^(١)».

وما أنزل إلينا من ربنا هو الحق. ومنه تتحدد معالمه وتعرف أصوله التي تكون أسسا للنظم العادلة وتتسع لتحقيق مصالح الناس في كل زمان ومكان. وبرهان ذلك أمران: أحدهما: أن الأصل الأول والمصدر العام للإسلام وهو كتاب الله تعالى لم يتعرض فيه لتفصيل الجزئيات بل نص فيه على الأسس الثابتة والقواعد الكلية التي يبنى عليها تنظيم الشؤون العامة للدولة. وهذه الأسس والقواعد قلما تختلف فيها أمة عن أمة أو زمان عن زمان. أما التفصيلات التي تختلف فيها الأمم باختلاف أحوالها وأزمانها فقد سكت عنها لتكون كل أمة في سعة من أن تراعى فيها مصالحها الخاصة وما تقتضيه حالها.

ففي نظام الحكم لم يفصل القرآن الكريم نظاما لشكل الحكومة ولا لتنظيم سلطانها ولا لاختيار أولى الحل والعقد فيها. وإنما اكتفى بالنص على الدعائم الثابتة التي ينبغي أن تعتمد عليها نظم كل حكومة عادلة ولا تختلف فيها أمة عن أمة فقرر العدل في قوله سبحانه: ﴿وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾. والمساواة في قوله سبحانه: ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾. أما ما عدا هذه الأسس من النظم التفصيلية فقد سكت عنها ليتسع لأولى الأمر أن يضعوا نظمهم ويشكلوا حكومتهم ويكونوا مجالسهم بما يلائم حالهم ويتفق ومصالحهم، غير متجاوزين حدود العدل والشورى والمساواة.

(١) رفع الملام عن الأئمة الاعلام: تأليف الشيخ تقي الدين أحمد بن تيمية. منشورات دار مكتبة الحياة. بيروت.

وفي القانون الجنائي: لم يحدد عقوبات مقدرة إلا لخمسة فئات من المجرمين. الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا. والذين يقتلون النفس بغير حق. والذين يرمون المحصنات الغافلات. والزانية والزاني. والسارق والسارقة.

أما سائر الجرائم - من جنایات وجنح ومخالفات - فلم يحدد لها عقوبات وإنما ترك لأولى الأمر أن يقدروا عقوباتها بما يرونه كفيلا بصيانة الأمن وردع المجرم واعتبار غيره، لأن هذه التقديرات مما تختلف باختلاف البيئات والأمم والأزمان فمهد السبيل لولاة كل أمة أن يقرروا العقوبات بما يلائم حال الأمة ويوصل إلى الغرض من العقوبة. وأرشد الله سبحانه إلى أصل عام لا يختلف فيه الأمم وهو أن تكون العقوبة على قدر الجريمة فقال عز من قائل: ﴿وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به﴾. وقال: ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾.

وفي قانون المعاملات: اكتفى بالنص على إباحة ما يقتضيه تبادل الحاجات ودفع الضرورات فأحل البيع والإجارة والرهن وغيرها من عقود المعاملات وأشار إلى الأساس الذي ينبغي أن تبنى عليه تلك المبادلات وهو التراضي فقال عز شأنه: ﴿بأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم﴾.

أما الأحكام التفصيلية الجزئية هذه المعاملات فلولاة الأمر في كل أمة أن يفصلوها حسب أحوالها على أساس التراضي. وكذلك اكتفى بالنص على منع المعاملات التي تفضي إلى النزاع وتوقع في العداوة والبغضاء فحرم الربا. والميسر على أساس دفع الضرر وقطع أسباب الشحناء وسكت عن تفصيل الأحكام الجزئية لهذه المعاملات ليتسنى أن يكون تفصيلها في كل أمة على وفق حالها.

وفي النظام المالي: فرض في أموال ذوى المال وعلى رموس بعض الأنفس ضرائب^(١) وجهها في مصارف ثمانية مرجعها إلى سد نفقات المنافع العامة ومعونة المعوزين وترك تفصيل الترتيب لهذه الموارد وتصريفها في مصارفها لكل أمة تتبع فيها ما يلائمها.

(١) فرض في أموال ذوى المال «حقوقا وصدقات» وجهها في مصارف ثمانية... ولعل هذا ما يريد الشيخ رحمه الله من قوله: فرض ضرائب.

وفي السياسة الخارجية : أجل علاقة المسلمين بغيرهم في قوله سبحانه ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ﴾ . فالقرآن الكريم لم ينص في الشؤون العامة على تفصيل الجزئيات . وما كان هذا لنقص فيه أو قصور وإنما هو لحكمة بالغة حتى يتيسر لكل أمة أن تفصل نظمها على وفق حالها وما تقتضيه مصالحها على ألا تتجاوز في تفصيلها حدود الدعائم التي ثبتها . فهذا الذي يظن أنه نقص هو غاية الكمال في نظام التقنين الذي يتقبل مصالح الناس كافة ولا يحول دون أي إصلاح .

والثاني : ان الإسلام أبان بكثير من أحكامه وحكمه وآياته أن غايته هي تحقيق مصالح الناس ورفع الضرر عنهم ، ومقصوده إقامة العدل بينهم ومنع عدوان بعضهم على بعض ، يتبين هذا من حكم التشريع التي نص عليها مع الأحكام في مثل قوله تعالى : ﴿ ولكم في القصاص حياة ﴾ . وقوله سبحانه : ﴿ إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم متتهون ﴾ . وقول الرسول صلى الله عليه وسلم في منع بيع التمر قبل أن يبدو صلاحه : «أرأيت إذا منع الله الثمرة بم يأخذ أحدكم مال أخيه» . بل إن العبادات نفسها قرن التكليف بها بما يدل على أن المقصود منها إصلاح حال الناس ، كما قال تعالى في حكمة الصلاة : ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ . وفي الصيام : ﴿ لعلكم تتقون ﴾ . وفي الزكاة : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ﴾ . وفي الحج : ﴿ ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ﴾ . وينطق بهذا قوله : ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ . وقوله عز شأنه : ﴿ ما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾ . وقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « لا ضرر ولا ضرار » وقوله صلى الله عليه وسلم : « بعثت بالحنيفية السمحة » .

وإذا كان الإسلام غايته ومقصده إصلاح الناس وإقامة العدل فيهم وخطته وطريقته اليسر بهم ورفع الحرج عنهم فهو بلا ريب كفيلاً بكل سياسة عادلة ويجد كل مصلح في

أصوله وكلياته متسعا لكل ما يريد من إصلاح ولا يقصر عن تدبير شأن من شئون الدولة^(١).

والحق الذي أنزله الله منه فرائض تزكى النفس وتطهرها ومنه قواعد تحدد ما يحل وما لا يحل . ولا غنى بهذا عن ذلك ، وتأتى الأحداث المتجددة لساحة الحياة . وفيها فرائض الحق وقواعده قد أنزلها الله ليقوم الناس بالقسط . فلا يكون اجتهاد الانسان في تحرى العدل مطلقا بلا ضوابط مُنسأباً بلا حدود . بل هو محكوم بحدود لها منارات وبيئات تمنع من التجاوز وتقى من العثرات .

﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط﴾ . ومع البينات والكتاب والميزان يجد الناس هدايتهم إلى إقامة العدل . وإن هبطت بهم شهواتهم وإيثارهم العاجلة رفعتهم عقيدتهم فخافوا مقام ربهم وسعوا سعى الآخرة . فطابت نفوسهم باتباع الحق ونعمت بإقامة العدل . وكان اجتهادهم محكوما بضوابط الشرع وقواعد الحق معصوما من اتباع الهوى . مأجورا وإن أخطأوا . ومما يعين الناس على القيام بالحق وتحرى العدل في معاملاتهم تطبيق ما جاء من الحق في الاعتقاد والتربية والتعليم وإقامة الفرائض التعبدية والفضائل والأخلاق فإن الإنسان هو محور الإصلاح وهو المخاطب بالتطبيق فلا بد من صلاحه واستقامته .

وإذا كنا نملك الاسس الثابتة والقواعد الكلية . فإن الفكر الإسلامي مطالب دائما أن يعالج الأحداث المتجددة بفطرة الدين . مستعينا بأصوله وقواعده . فانه من الخطأ بل من الخطيئة أن تثار قضايا الدين بعيدا عن الواقع أو يعالج الواقع بغير فطرة الدين .

«وسبيل ذلك هو الاجتهاد السليم الصحيح القائم على كمال النظر وحسن البصيرة وسلامة الوزن والإخلاص في ذلك والصدق فيه ووسائله الآن أيسر تحصيلا منها في القرنين الأولين ؛ فالسنة قد جمعت وكثرت منها الكتب وبخاصة فيما يختص منها بالأحكام . والمكتبات بها ذاخرة وتفاسير القرآن بألوانه المختلفة ، وعلى الأخص ما يتعلق

(١) السياسة الشرعية أو نظام الدولة الإسلامية في الشئون الدستورية الخارجية والمالية . عبد الوهاب خلاف .

بالأحكام من آياته وما للسلف فيها من آراء مطبوعة ميسرة وكتب الفقه وأصوله تزرعها المكتبات . والحصول عليها يسير، والإمام بما يحويه كل ذلك مستطاع ، وتعلم العربية بالقدر المطلوب للفهم والحكم ممكن ميسور الوسائل . وليس ما يمنع من إخلاص النية والجد في التحصيل واكتساب المعرفة . وقيام الدولة الإسلامية بتوفير الامكانيات لتحقيق ذلك والترغيب فيه»^(١) .

«فان الإسلام بما نص عليه من الأحكام وبما وضعه من الاصول للاستنباط وبما أرشد إليه من اعتبار المصالح ، فيه غناء لكل دولة إسلامية لو أن المسلمين وفقوا وكان لهم في كل عصر جمعية تشريعية»^(٢) مؤلفة من خيرة أهل العلم بأصول الدين والبصر بأمور الدنيا وعهد إليهم أن يسايروا تطورات الناس والأزمان ويستنبطوا للوقائع المختلفة الأحكام التي تتفق ومصالح الناس ، ولا تخالف أصول الدين ولكنهم فرطوا في هذا فتصدى للاستنباط من هو غير أهل له وعمت فوضى الاجتهاد الفردي واضطروا لمعالجة هذه الفوضى بسد باب الاجتهاد والاختصار على فهم وتطبيق ما استنبط الائمة المجتهدون السابقون . وكان من نتائج هذا الوقوف تركهم وما وقفوا عنده ومسايرة الزمن بالقوانين والنظم التي تقتضيها المصلحة»^(٣) .

إن الناس إذا لم تسعفهم المؤسسات المنسوبة إلى دين الحق بالبيان في الأحداث المتجددة والقضايا المتلاحقة تحفظتهم أندية الباطل وأبعدتهم عن أصول دينهم بتذليل شئون دنياهم . ولأن يخطيء المسلمون في الاجتهاد السليم الصحيح خير لهم من التبعية والمطاوعة لغيرهم . ولان يعيشوا بأجر الخطأ في الاجتهاد خير من العيش بوزر القصد في الاتباع . اتباع من يردهم عن دينهم ، ويبعدهم عن أصوله ﴿وكيف تكفرون وأنتم تلتئ عليكم آيات الله وفيكم رسوله﴾ .

(١) الاجتهاد في الشريعة الإسلامية: للشيخ علي الحفيف.

(٢) واضح أن الشيخ رحمه الله يقصد بقوله «جمعية تشريعية مؤلفة من خيرة أهل العلم» . . . فتح باب الاجتهاد بدليل قوله ويستنبطوا للوقائع المختلفة الأحكام التي تتفق ومصالح الناس فهي جمعية تجتهد في استنباط الأحكام من أصول الشرع ولا تشرع.

(٣) السياسة الشرعية: للشيخ عبدالوهاب خلاف.

إن الامر ميسور لمن تحرى العدل ورغب فيه . وطلب الحق واجتهد في التمسك به والحرص عليه . والدين هو الحق والعدل . في جميع ما جاء به ودعا إليه . وهذه الكلية في أمر الدين تحث المسلمين على مواجهة الأحداث المتجددة في ثقة وبينة . فمقصد الدين هو إقامة العدل بين جميع الخلق .

«فإن الله سبحانه أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط وهو العدل الذي قامت به الأرض والسموات . فإذا ظهرت أمارات العدل وأسفر وجهه بأى طريق كان فثم شرع الله ودينه والله سبحانه أعلم وأحكم وأعدل أن يخصص طرق العدل وأماراته وأعلامه بشيء ثم ينفي ما هو أظهر منها وأقوى دلالة وأبين أمانة فلا يجعله منها ولا يحكم عند وجودها وقيامها بموجبها بل قد بين سبحانه بها شرعه من الطرق أن مقصوده إقامة العدل بين عباده وقيام الناس بالقسط فأى طريق استخرج بها العدل والقسط فهي من الدين ليست مخالفة له^(١) .

فليثق المسلمون في أنفسهم مع ثقتهم في دينهم ليعالجوا - في غير حرج - قضايا عصرهم بفطرة دينهم . وليخوضوا معركة الحياة وفي طريقهم نوران كتاب ، وسنة . فمهما اتسعت الحياة وتعددت أحداثها فان معهم من النور والتبيان في كل عصر ما يرشدهم إلى الحق ويهديهم اليه وإلى طريق مستقيم . معهم من الثابت في أمر دينهم ما ينير طريق المتغير في حياتهم . معهم من القواعد والاصول ما يتسع لجزئيات الأحداث واختلافها في الزمان وفي المكان . وما يجعل شريعتهم صالحة للتطبيق في كل زمان ومكان . وبذلك تكون صلتهم بالحق الذي أنزله الله دائمة ومتجددة راشدة ومثمرة . ويستمد كل جديد في دنياهم أسباب حياته من شمس دينهم ونور كتابهم . فلا تنفصل قضايا عصرهم عن الحق الذي أنزله الله وأمر أن يحكم به . بل تتصل به اتصال النبت المتجدد بأسباب الحياة واتصال الحياة بمصدرها فلا تحكم إلا بما أراها الله .

وبعد هذا التفصيل نعود فنقول : ان الأصل في معرفة الحق وتحديد معالمه الكتاب

(١) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية : لابن القيم .

والسنة : ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ﴾ .

والكتاب وحى . والسنة وحى . ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ .
ومع الآيات لنرى ما تدل عليه وتدعو إليه .

الآيات

١ - ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ (البقرة: ١٤٧)

٢ - ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ (آل عمران: ٦٠)

٣ - ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ
فَعَامِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (النساء: ١٧٠)

٤ - ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ
مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ
بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ (الانعام: ١١٤)

٥ - ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ
عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (التوبة: ٣٣)

٦ - ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ

الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا

(يونس : ٩٤)

تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿

٧ - ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ

أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۗ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا

(يونس : ١٠٨)

وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿

٨ - ﴿ الْمَرَّةَ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ

(الرعد : ١)

وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿

٩ - ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿

(الاسراء : ١٠٥)

١٠ - ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ ۗ

(الكهف : ٢٩)

١١ - ﴿ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ

(فاطر : ٣١)

يَدَيْهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿

١٢ - ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۗ إِن يُشَاءِ اللَّهُ يُخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ

اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحَقِّقُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ۗ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿

(الشورى : ٢٤)

١٣ - ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ ۙ

عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿ (الفتح : ٢٨)

الحق الذي جاء من رب العالمين تعرف به حقائق الأشياء وتدرك به الغاية والمصير. ويتميز به الحبيث من الطيب. ويوضع بسببه الميزان ويدخل من يدخل الجنة ويحشر من يحشر في النار.

وما من أمر ذي بال أو شأن من شئون الخلق إلا وجاءت فيه من الله كلمة الحق. وما كان رسل الله وأنبياءه إلا أئمة حق ودعاة صدق وما نزل القرآن ولا حفظ إلا ليهدى الناس إلى الحق.

إن الذي خلق الخلق جميعا هو الذي يقول فيهم ولهم كلمة الحق أما المخلوق فعاجز محتاج لمن يهديه إلى الحق في نفع وضر وحياة وموت وشهادة وغيب.

والله وحده هو الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى. هدى بالفطرة وهدى بالوحي، وهدى بالآيات البيّنات في الأنفس والأفاق. وكل ذلك بالحق ومن أجل الحق. فمن ذا الذي يملك غيره أن يهدي إلى الحق. ان الذي يُبَلِّغ أو يُرشد من العباد إلى الحق إنها يرشد بوحيه. وتعليمه ورحمته وتوفيقه. ومن يحكم بالحق إنها يحكم بشرعه. ومن يهدي إلى الحق إنها يهدي بهديه :

﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ

يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِيَ مَا

(يونس : ٣٥)

لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿

ومن كانت الأرض قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه هو وحده الذي يملك أن يحق الحق وأن يقول الحق وأن يقضى بالحق وأن يجزي على الحق ثوابا أو عقابا.

ان الذى يحق الحق على الاطلاق هو الحى الذى لا يموت والذى يقول الحق فى الأمر كله من بيده الملك وهو غنى عن الخلق . والذى يقضى بالحق ويجازى عليه من أحاط بكل شىء علما وهو على كل شىء قدير .

لذا نرى الآيات - وهى تتحدث عن مصدر الحق . تذكر أنه لا يكون الا من له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين .

- * ﴿ الحق من ربك ﴾ .
- * ﴿ قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم ﴾ .
- * ﴿ لقد جاءك الحق من ربك ﴾ .
- * ﴿ والذى أنزل إليك من ربك الحق ﴾ .
- * ﴿ وقل الحق من ربكم ﴾ .

هكذا يقترن إنزال الحق ومجيئه بعنوان الربوبية مضافا إلى ضمير المخاطب صلى الله عليه وسلم أو إلى ضمير الجمع (من ربكم) . وهو يبنىء عن أمرين : الأول : أن الحق لا يكون إلا من رب العالمين لانه هو وحده الذى يخلق ، وهو وحده الذى يرزق . وهو وحده الذى يوفق ويهدى من شاء هدايته إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، الثاني : أن العباد - وهم المخاطبون - بالحق الذى أنزل مربوبون . والحق من ربهم . والحق فى ذاته جدير أن يتبع وهو ما جاء إلا من ربهم الذى أنشأهم ورزقهم . فكونه الحق وكونه من ربهم داعيا إلى الإخلاص فى الطاعة والعبادة وحسن الاستقامة .

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ

الذِّينَ ﴾

(الزمر: ٢)

والمراد بـ «الحق» . فى كل ما ذكر . ما نزل على محمد صلى الله عليه وسلم . وهو الحق من ربهم . فيعرف الحق من الكتاب الذى أنزل عليه ومن بيانه صلى الله عليه وسلم بقوله أو فعله أو تقريره . والبيان والمبين وحى يجب أن يطاع وشرع يجب أن يتبع .

والوحي في الرسالة الخاتمة مصون من التحريف والتبديل عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . لأن الله قد حفظه . ومن حفظه الله لا يضيعه الناس . وما استحفظوا عليه من قبل لم يحفظوه . واقرن الحفظ بالرسالة الخاتمة لأنه ليس بعد رسولها رسول ، ولا بعد الكتاب المنزل عليه كتاب . فلو ترك للناس حفظه لضيعوه والتبست على الأجيال معالم الحق . وحفظه حفظ لرسالة الأنبياء جميعا . فهو الحق الناطق بما جاءوا به وما دعوا إليه .

ودين الحق هو الاسلام . وسبل معرفته رسول وكتاب . رسول قد حفظت سنته ، وكتاب قد حفظت آياته .

ويمكننا - ونحن نتدبر الآيات التي نتحدث عن مصدر الحق - أن نقف عند امور:

الأول : أن الحق الذي يراد تبليغه للناس من قبل الله يرسل به رسولا من خلقه . يكون أسوة للخلق في اتباع الحق . لا يسأل الناس أجرا ، يبلغ رسالة الله في صبر واحتساب وحسن توكل على الله . وما عليه الا البلاغ وعلى الله الحساب :

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا
الْبَلَاغُ ﴾

(الشورى : ٤٨)

والرسول - وهو من البشر - له أجل محدود يلقي فيه ربه فيسأله عما أجيب به فيقول كغيره من الرسل ﴿ لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب ﴾ . ﴿ يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجيتم قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب ﴾ . (المائدة : ١٠٩) . لا علم لهم بما يكون عليه أقوامهم من بعدهم ولا علم لهم بما تطويه صدور الناس وهم يعلنون إسلامهم . لا علم لهم إلا بما يعلمهم الله به . فالأمر لله من قبل ومن بعد : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ . فالله الذي أرسلهم بالحق هو الذي يحاسب على الحق وهو يعلم ما عليه الخلق .

﴿ الْآيَاتِ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

(النور: ٦٤)

الثاني : أن الله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق . جعل الحق منتصرا ولو لم يتبعه إلا القليل من الناس . ظاهرا بحجته وسلطانه . منيرا بهدأيته ، وبيانه .

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾

(التوبة : ٣٣) ، (الصف : ٩)

والله شهيد على ما أرسل به نبيه وكفى بالله شهيدا . ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا ﴾ . شهيد كذلك على أن ما وعده به كائن . وأن دين الحق منتصر عال على كل ما خالفه . ولقد حقق الله وعده . بما يمكن لدينه في الأرض وبما أظهره من الحجج والآيات . ومن يرى عندما دعا الرسول صلى الله عليه وسلم قومه إلى دين الحق فقالوا . ﴿ إن تتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا ﴾ . من يرى ما صاروا إليه في سنوات قليلة . وكيف طويت أمام مداهم وهم يتبعونه دولة الفرس والروم ووجدوا ما وعدوا به من نصر وعز . من يرى ذلك لا يشك لحظة في انتصار الحق وظهوره .

والناس قد يحسبون أن انتصار الحق لا يكون إلا في معارك الحرب والقتال ويفوتهم أن الحق منتصر دائما ولو انهزم الناس . فكم من معارك عجز الناس فيها عن تحقيق النصر . فانتصر الحق على المحاربين بآياته وبيناته فدخل فيه من جاء يحارب أهله ويغزو ديارهم .

وكم من ناس نقموا من أهل الحق فإذا بهم - وقد غزا الحق قلوبهم - يصبحون من أهله المجاهدين في سبيله .

إن انتصار الحق في المعاملة في سلم أو حرب في بيع أو شراء . في أخذ أو عطاء . انتصار الحق في ذلك كله برهان ثباته وبقائه . برهان شرفه ووفائه . ان هو قاتل أو عاهد . أو حارب أو سالم . أو صالح أو خاصم . معاملة المؤمنين به الأوفياء له أقوى في الدلالة عليه من انتصارهم في معركة أو فوزهم في لقاء . فكم من معارك انتصر فيها صاحب قوة ولم يلبث نصره أن يتلاشى ويذهب جفاءً . وما بقى من نصر لمنتصر في حرب إلا ما قام على الحق ومن أجل الحق . بقى الحق الذي قامت الحرب من أجله يذكر به من قاتل في سبيله . وذهبت حروب البغى مع أهل البغى نقمة على أهلها ومثلاً وعبرة لمن جاء بعدها . فالمنتسب إلى الحق يُبقى الحق ذكره ويعلى قدره بقدر إخلاصه له . وصدق اتباعه . والباطل يدمر أهله وهم يتبعونه ويركنون إليه . ولا يبقى إلا بقدر فتنة الناس به فإذا قذفته أمواج الحق ذهب جفاء ليس له من نفع أو بقاء . وإذا خُسِفَ به وبداره الأرض رأيت من فتنوا به وتمنوا مكانه بالأمس يقولون قولة أهل الحق :

﴿ وَيَكَاذِبُ اللَّهُ بِيَسْطُ الرِّزْقِ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ
وَيَقْدِرُ لَوْ أَلَّا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَاذِبُ وَلَا يُفْلِحُ

الْكَافِرُونَ ﴿ (القصص : ٨٢)

وعندئذ يوقنون أن العاقبة لا تكون إلا لأهل الحق من المتقين . وقد يظن الناس أن سوء العاقبة وقف على قارون ومن كان على شاكلته ممن خلا من قبل وينسون أن سنن الله لا تتبدل ولا تتحول في إزهاق الباطل وذهاب أهله :

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾

(الأنبياء : ١٨)

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ

(محمد: ١٠)

﴿ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ وَاللَّكْفَرِينَ أَمْنَاهَا ﴾

والثالث: أن اتباع الحق - وقد عرف - مصدره - لا يعود نفعه إلا على من اهتدى به وأن مخالفته والبعد عنه لا تعود إلا على من ضل سبيله . والله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق غنى عن العالمين لا تنفعه طاعة متبع ولا تضره معصية مخالف .

﴿ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۗ ﴾

(يونس: ١٠٨) ﴿ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بِصَآئِرٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾

(الانعام: ١٠٤)

وكفى بالرسول أن يبلغ ما أمر بتبليغه ويبشر وينذر كما أمره ربُّه :

﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾

(النساء: ١٧٠)

الرابع: أن أكثر الناس لا يؤمنون بالحق . وتلك شهادة له وليست ضده . إن الله الذي أرسل نبيه قد أخبره :

﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾

(يوسف: ١٠٣)

﴿ وَإِنْ تَطَّعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ

اللَّهِ ﴾

(الانعام: ١١٦)

نعم هي شهادة له لأن الحق لا ينال شرفه إلا من علم الله صدق نيته وشرف غايته .
وكم من نبي حرص على هداية من أحب فلم يكن إلا ما أراد الله أن يكون . . وهو أعلم
بالمهتدين . تلك شهادة للحق بأنه ليس عطاء يملكه عبد من عباد الله وإنما هو نور يقذفه
الله في قلب من يشاء ﴿ ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾ . ولم يستطع نوح عليه
السلام أن يصنع شيئاً لابنه . ولم يستطع سيد الخلق صلى الله عليه وسلم أن يحقق الهداية
لعمه مع بذله النصيحة له وإبداء الحرص عليه .

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ

أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾

(القصص: ٥٦)

﴿ الْمَرَّةَ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ

وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

(الرعد: ١)

الخامس : أن فطرة الناس جميعاً نزاعة إلى الحق وإن لم يؤمنوا به . ونفوسهم مستيقنة
به وإن جحدوه . فظلمهم لانفسهم بالكفر لا يخفى خضوع فطرتهم للحق :

﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾

(النمل: ١٤)

ولو كان الحق دخيلا على فطرة الناس لما أنست في الناس منه أثرا وأنت تراه منهم وإن جحدوه . ولما رأيت فيهم منه دلالة في معاملة وأنت ترى دلالة في معاملتهم وإن لم يعلنوا إيمانهم به . بل قد تراه أحيانا مروءة عند ذى مروءة وإنصافا عند من لا يتوقع منه الإنصاف . ترى أعمالا وأعمالا عند أهل الكفر تنسب إلى الحق لا إلى الكفر . وما ذاك إلا من تأثير فطرة الحق التي فطروا عليها ودين الحق الذي ولدوا عليه « وكل مولود يولد على الفطرة . وأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » .

﴿ فَأَقَمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ

عَلَيْهَا لَا نَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ

أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿ (الروم: ٣٠)

ولذا فان من يُقِمُّ العدل بين الناس يجد عونهُ من فطرة الناس بعد عون الله عز وجل . ومن يَسْعَ بينهم بمكارم الأخلاق يجد منهم تقديرا واحتراما وإن لم يعلنوا إيمانهم بما يدعو إليه . وتلك شهادة بأن الحق ما كثر فيهم نافع لهم وإن جحدوه أو أنكروه .

السادس : الناس جميعا مدعوون إلى اتباع شريعة الحق التي أرسل بها خاتم الرسل صلى الله عليه وسلم . رسول من عند الله إلى الناس جميعا . جاء بالحق للناس جميعا ﴿ قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم ﴾ .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ

فَتَأْمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿ (النساء: ١٧٠)

«المخاطبة بقوله : ﴿ يا أيها الناس ﴾ . مخاطبة لجميع الناس والسورة مدنية ، فهذا ما

خوطف به جميع الناس بعد الهجرة . لان الآية دعاء الى الشرع ولو كانت في أمر من أوامر الأحكام ونحوها - لكانت : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ - والرسول في هذه الآية : محمد صلى الله عليه وسلم . وبالحق : شرعه^(١) .

وفي اتباع الشرع هداية لهم إلى الحق واستجابة لنداء ربهم :

﴿ قُلْ يَتَّيِبُهَا النَّاسُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا
الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي
وَيُمِيتُ فَتَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ
بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَأَتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

(الاعراف : ١٥٨)

السابع : ان الرسول صلى الله عليه وسلم قد خوطف بقوله تعالى : ﴿ الحق من ربك فلا تكونن من الممترين ﴾ . جاء هذا في سورة البقرة . وفي سورة آل عمران ﴿ الحق من ربك فلا تكن من الممترين ﴾ . وفي سورة يونس : ﴿ لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين ﴾ . وهذه الصيغة في مخاطبة الرسول صلى الله عليه وسلم ذات دلالة بالغة في الدعوة إلى اليقين بأن ما جاء من عند الله هو الحق فإن الأدلة من الوضوح والبيان في الكتاب المفصل والنبى المرسل بحيث لا ينبغي لأحد أن يمتري في أنه الحق ﴿ أفغير الله أبتغى حكما وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين ﴾ . (الانعام : ١١٤) . الكتاب قد بين فيه الفصل بين الحق والباطل . وأهل الكتاب يعلمون ذلك وأدلة الحق لا تخفى على أحد . فان أدلته قائمة في آيات الله في الأنفس والافاق وهي تعاضد الآيات المنزلة في الكتاب . وما كان من الله لا يتناقض ولا يختلف وما كان من عند غير الله يجد الناس فيه اختلافا كثيرا وتناقضا مع الزمن ينبيء عن أن ذلك من صنع البشر .

(١) المحرر الوجيز: لابن عطية .

﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَوْجَدُوا فِيهِ

(النساء: ٨٢)

﴿ أَخِذْكَافًا كَثِيرًا ﴾

فلا موضع لامتراء أو شك في أن المنزل من عند الله هو الحق . فلا سبيل لأحد في معارضته أو مخالفته لأنه منزل من رب العالمين . ومن التكريم للرسول صلى الله عليه وسلم أن يقال له ﴿الحق من ربك﴾ . هكذا بكاف الخطاب المنبئة عن عناية الله به ونصرته له ﴿فلا تكونن من الممترين﴾ . «الممترين» هم الشاكون . والمرية : الشك . ونهى النبي صلى الله عليه وسلم في عبارة اقتضت ذمَّ الممترين . وهذا يدل على أن المراد بالامتراء غيره . ولو قيل فلا تكن ممتريا لكانت هذه الدلالة أقل . ولو قيل فلا تتمر لكانت أقل . ونهى عليه السلام عن الامتراء مع بعده عنه على جهة التثبيت والدوام على حاله^(١) .

﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكِّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ

الْكِتَابِ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا

(يونس: ٩٤)

﴿ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾

وقد قال صلى الله عليه وسلم عند نزوله : «لا أشك ولا أسأل بل أشهد أنه الحق» .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما : لا والله ما شك طرفة عين ولا سألت أحدا .

والآية من بعد تنبيه عمن شك أو امترى وتخبر عن ثبات الرسول صلى الله عليه وسلم على الحق ويقينه به وصدعه بها أمر في مواجهة الشاكين أو المكذبين .

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكِّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ

(١) المحرر الوجيز: لابن عطية .

تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّكُمُ وَأُمِرْتُ

أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾

(يونس : ١٠٤)

ولماذا خوطب الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله : ﴿فإن كنت في شك﴾ . مع أن المراد غيره؟ إن الخطاب له «فيه من قوة التأثير في القلوب ما لا مزيد عليه ، بمثابة ما لو خاطب سلطان عاملا له على بلده بحضور أهلها بوصاياه وأوامره الرهيبية فيكون ذلك أفعل في النفوس»^(١).

الثامن : يخطيء ويضل من يظن أن الافتراء على الله يُفوت لأصحابه . أو يترك لمدع أن يدعى على الله وينسب إليه ما لا يليق به أو يصدر عنه . ويستحيل كل الاستحالة أن يقع الافتراء على الله من الرسل والأنبياء . وما كان الله ليؤيد من افترى عليه أو ينصر من كذب عليه :

﴿ وَلَوْ نَقُولَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقْوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

(الحاقة : ٤٤ - ٤٧)

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ دَشَا اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ ﴿٢٤﴾ وَبِمَحْ أَلَّهِ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٥﴾ ﴾

(الشورى : ٢٤)

ان ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم لا إرادة له فيه ولا مقدرة له عليه :

(١) تفسير القاسمي .

﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَسْأَلُونَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكُمْ إِذَا

(العنكبوت: ٤٨)

لَا تَرْتَابَ الْمُبْطَلُونَ ﴾

فثبت الحق في نفسه عطاء من ربه وعلمه به تعليم من ربه .

﴿ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ

مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾

(النساء: ١١٣)

فهل يمكن لباطل أن يتسرب إلى قلب من تعهده الله واصطفاه ؟ وهل يمكن لمثله أن يفترى وجميع ما جاء به مرجعه إلى الله ؟ وهل هناك مجال لافتراض أن يفترى مرسل على الله الذي أرسله وهو يعلم ما شرفه به وما أنزله عليه ؟ هل هناك مجال لافتراض يناقض نفسه فلا يبقى له حقيقة ولا يبقى له في التصور مجال . ذلك أن الافتراض بالافتراء مبنى على افتراض نسبة الكذب إلى الرسول ومن كذب إنما يطلب في الناس رفعة أو مكانة ينال بها في دنياهم ما ينال . فكيف وقد بُؤىء باختياره من ربه رسولا إلى خلقه مكانة يدرك منها أن دنياهم كلها لا تساوى عند الله جناح بعوضة . فهل يكذب من أجل بعوضتهم . وهو يعلم أى خير أرسل به وأى فضل أُعِدَّ له ؟ لقد عاش صلى الله عليه وسلم في دنياهم دون أن تمتد عينه إلى زهرتها ولو أراد منها لأعطى . وقد أُعطي فما أبقاها لنفسه بل أعطاه لغيره وأثر به سواه . وقد كان بيته بيت الهلال ثم الهلال ، ثم الهلال ثلاثة أهلة ولا يوقد فيه نار . مع أن ما يعطيه لغيره مما أفاء الله عليه يقيم القصور ويملأ الدور ويكثر الزينة والمتاع . لقد جاء رسولا من الله إلى دنياهم فما علق به وما تعلق بها . لقد جاء مصلحا لها لا طامعاً فيها . راغبا عنها لا راغبا فيها .

فكيف به وقد عرف ربه ونال فضله يفترى عليه فيسلك بنفسه سبل ذل بعد عز .

ويمضى لظلام وهلاك بعد نور وحياة . ويرضى بضلال بعد أن نال هداه . وهو أعلم الناس بربه . وأوفاهم شكراً لنعمته وفضله .

ان من اغتنت نفسه بالحق لا يقبل الباطل . ومن عمرت نفسه بصدق الإيمان بربه لا يرضى أن يكذب على خلقه . وكيف يدع الكذب على الناس ابتغاء رضوان الله - ثم يكذب على الله . إنه لا يجترىء على افتراء الكذب على الله إلا من كان في مثل حال أهل الكفر . فكيف بمن جاء يجارب كفرهم وينفى جحودهم ويدعوهم إلى الإخلاص في عبادة ربهم ؟

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَاءِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾

(الشورى : ٢٤)

إنه الحق ولا سبيل لإتيان باطل إليه . وإنه الصدق ولا سبيل الا لتصديقه وإبعاد الكذب عن ساحته .

﴿ وَإِنَّهُ لَلَّذِكْرُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾

(الحاقة : ٤٨ - ٥٢)

ولا نجاة الا لمن آمن به ورضى بحكمه :

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾

(النساء : ٦٥)

﴿ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلْنَاهُ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ (الاسراء : ١٠٥)

فمعرفة الحق سبيلها رسول وكتاب . كتاب ما أنزل الا بالحق وما نزل إلا بالحق ،
ورسول أرسل بالهدى ودين الحق . وبالكتاب وبالرسول لتحديد معالم الحق للناس في
كل أمر وتعرف في كل حكم . ومن ابتغى الهدى في غير ما أنزل الله أضله الله . ومن
حكم بغير ما أنزل الله - وهو يعلم حكمه - ايثارا لغيره واعراضا عن ذكر ربه أخذ بذنبه
وباء بغضب من ربه .

﴿ وَإِنْ أَحْكَمُ بَيْنَهُمْ يَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَحْذَرَ لَهُمْ
أَنْ يَقْتُلُوا عَنْكَ بَعْضُ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا
يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنْ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ
لَفَسِقُونَ ﴿٤١﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ
حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾

(المائدة: ٤٩ ، ٥٠)

والحساب عسير لمن تعمد إعراضا ورغب في غير ما أنزل الله : ﴿ إن الله بعباده خبير
بصير ﴾ .

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا
أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا
يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ
مُرْتَفَقًا ﴾

(الكهف: ٢٩)